خطاب جلالة الملك

بمناسبة الذكرى السادسة عشرة لثورة الملك والشعب

الحمد لله والصلاة والسلام على مولانا رسول الله

شعبي العزيز :

أرى نفسي مقلداً كل سنة في مثل هذا اليوم، أن أحيي معك ذكرى منفى والدنا وثورة الملك والشعب، وكلما توالت السنون وتجددت الأيام يكثر ما يمكن أن يقال في هذه الذكرى وما يمكن أن يستنتج من تضحياتها.

إلا أنني ولو أسعدني الحظ انني شاركت والدي سنين وسنين في عراكه وكفاحه، وفي منفاه، وفي انتصاره ورجوعه، لا يمكنني كيفما كانت ذاكرتي أو كيفما كانت قوة استحضاري أن أحيط بالموضوع الاحاطة المرغوب فيها، ولا أن أقول في الموضوع ما يمكن أو ما يجب أن يقال فيه.

إلا أنني رأيت هذه السنة أن أتطرق إلى مواضيع ربما لم تثر في مثل هذه الذكرى من السنوات الماضية لا من باب الاغفال ولا من باب التقصير، ولكن لكل مقام مقال ولكل سنة مقال ولكل جيل موضوع ولكل حياة معركة.

في مثل هذا اليوم من سنة 1953 تجبر الجبابرة وتطاول المتطاولون، وامتدت أيديهم الغاشمة إلى أقدس مقدساتنا وأنفس مقوماتنا وأكرم وأشرف دعاماتنا.

فكان المنفى، وكان ما سمي بالتضحية.

ولكن علينا أن نفهم وعلى أن أعبر أكثر من غيري على أن تلك التضحية كانت في نوعها وفي ولادتها، وفي نموها تضحية خاصة، ليست بالتضحية العادية ولا بالتي هي معروفة عندنا.

ذلك أن تلك التضحية، لم تكن وليدة ظروف، ولا وليدة سنة، ولا وليدة معركة، ولا وليدة يوم، ولا وليدة مؤامرة واحدة، ولا تضحية غير منتظرة، بل كانت تضحية معروفة عند صاحبها منذ سنوات وسنوات، كانت تضحية لا تترك للمضحي أي فرصة في النجاة نظراً لأنه كان أعزل ولم تكن بيده أي وسيلة، كانت تضحية مخلصة خالصة.

ذلك أن المضحي كان يعلم أن تضحيته من شأنها أن تنجي البلاد.

ومع ذلك أنه هو المضحي من شأنه أن لا يجد أي حظ في المعركة التي سيخوضها.

إنها تضحية بدون رجعة.

وإنها تضحية لله في سبيل الله.

ولأعطيك مثالا لهذا شعبي العزيز.

أذكر ما قاله لي رحمه الله في قاعة أكله، تلك القاعة التي دخلت في التاريخ، لأنها شهدت ما شهدت، وسمعت ما سمعت، وكتبت فيها ما كتبت، وحرر بين جدرانها ما حرر سنة 1951 يوم 26 فبراير.

وهذه مصادفة عجيبة، فقد توفي رحمه الله، عشر سنين بعدها كفتح مكة عشر سنين بعدها في 26 فبراير سنة 1961.

ففي سنة 1951 يوم خامس وعشرى يبراير أتاه المقيم وطلب منه أن يتبرأ من طائفة من المغاربة الأحرار المؤمنين الصادقين وقال له : سوف تنزع من الملك، وتؤخذ أخذاً من عرشك هذا.

سلمت القضية، وخرجنا من تلك المعركة منتصرين ويومان من بعد هذه المعركة قال لي رحمه الله بالدارجة :

« اسميت سيدي واش يْقولُو العامة ؟ اللي ساومك بالطرشة كأنه أعطاها لك ».

قلت له نعم.

قال لي كن على بال، على انه يوماً ما فالشيء الذي لم يفعلوه اليوم سوف يفعلونه غداً.

فلهذا ليست عندي قوة ولا جيش ولا مالية ولا نظام للدفاع، ولكن أخاف أن هذه المعركة التي سنخوضها ستضر بمستقبلكم أنتم أولادي وبناتي.

فأنا أطلب منكم أن تسمحوا لي، ولكن أطلب منكم أن تفهموني، وكنا نحن الاثنين فقط.

فكان جوابي له :

يا سيدي.

أعمل كأنك أعزب لا عيال لك ولا أبناء.

فعجباً لهذا الرجل، الذي عاش سنتين، ونام سنتين، وأكل سنتين وشرب سنتين في اطمئنان وطمأنينة، وهو يعلم — دون أن يعلم التاريخ ولا اليوم — أنه بين عشية وضحاها يمكن أن تمتد إليه أيدي المعتدين، وأن يطلب منه أن يضحي.

فكان رحمه الله بشيراً مستبشراً خالصاً مطمئناً، ينتظر كل يوم أن تطلب منه التضحية ولم تثنه هذه الفكرة ولا هذا الانتظار عن القيام بواجباته إزاء دولته، وإزاء شعبه، ولم تمنعه أن يلقانا باشا ضاحكاً، ولم تمنعه أن يبقى ذلك الرجل السمح الطلق الرحب المبتسم، ذلك الرجل الذي إذا لقيه من لقيه اعتقد أنه لقي نفحة من نفحات الجنة.

شعبي العزيز :

ها أنت تعلم جانباً من جوانب هذه التضحية، وها أنت تعلم اليوم إنها كانت تضحية مستمرة، منتظرة، منظمة مرتضاة مبتغاة.

فهل كانت يا ترى تضحية ضائعة أم لا ؟

هذا سؤال يجب أن أجيب عنه.

كانت تضحية أتت بالنتائج المتوخاة وفوق المتوخاة أتت باستقلالنا، أتت بحريتنا، أتت بكرامتنا، أتت باعتزازنا.

ثم كانت تضحية مكنتنا من ممارسة شؤوننا ومجابهتنا للمشاكل واحتكاكنا بالمسؤوليات.

ففي ميادين نجحنا.

وفي ميادين فشلنا.

وفي ميادين تقدمنا.

وفي ميادين تأخرنا.

وما هذا كله إلا الموكب العام الذي يواكب كل عمل لأن كل من يعمل لابد أن ينجح ويفشل.

لابد أن يصيب ويخطىء.

ولكن إذا نحن وضعنا الميزان، وقمنا بعملية إحصائية، لما حققناه وكان ناجحا، ولما حققناه ولم يكن ناجحا تمام النجاح، نجد أن الميزان الايجابي، وميزان التحقيقات وميزان النجاح، هو الميزان المتفوق وهو الميزان الراجح.

فهل معنى هذا شعبي العزيز، اننا سنكتفي بما قمنا به ؟ هل معنى هذا أننا سنرضى لأنفسنا أن نفكر في المغرب خلال تصميم واحد، أو تصاميم متعددة، أو ننظر إلى مشاكلنا وقوتنا وعملنا، واقتصادنا، وفلاحتنا وسيادتنا الخارجية إلى حد القرن الواحد والعشرين ؟

لا أعتقد هذا

وإذا كان لا حد للكمال، ولا نهاية للفضيلة، وبكل تواضع، وبكل شكر لله، لا نهاية لمجد المغرب، ولا نهاية لسيره، ولا نهاية لموكبه المنتصر، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

لذا علينا مرة أخرى أؤكدها لكم أن نتفق على المقاييس، وأن نتفق على الألفاظ، وأن نتفق حول الأرقام، وأن نتفق حول سياستنا الداخلية والخارجية.

توجيه سياستنا الخارجية :

وإنني لا أتطرق إلى هذا الموضوع، موضوع سياستنا الخارجية بكيفية خاصة، إننا نعيش في بلبلة البلابل، إننا نعيش اليوم في ترهات.

إننا كل يوم نقرأ أو نسمع خرافات.

فلتطمئن شعبي العزيز.

فالقائم بأمرك بفضل الله ومنته وقوته، قد أخذ الوطنية عن أكبر شيخ وأعظم أستاذ، لم يأخذها فكرياً فقط أو نظرياً، ولكنه مارسها مراسا جدياً صعبا طويلا، وقد ورث من أبيه وعن أبيه الاعتزاز بمغربيته، والحفاظ على كيانها.

إننا لا نعيش وحدنا :

إلا أننا علينا أن نعلم أن لكل قرن وسائله، ولكل جيل إمكانياته، وإمكانيات جدنا الحسن الأول، ليست هي إمكانياتنا.

والقوانين الدولية إذ ذاك، ليست هي القوانين، فالمعاملات معاملات الحروب والمعارك ليست هي معارك اليوم ولا معاملات اليوم.

فنحن لا نعيش وحدنا في قارتنا، ولكننا نعيش في مجتمع دولي له قوانين التزمنا بها، وله إمكانيات.

ونعيش مع دول عظمى في إمكانها أن تتدخل في أي وقت من الأوقات، فلماذا نظهر المغرب بهذا المظهر العنيد العنيف المخاصم، المحاج الذي لا يمكن أن يتعايش بوجه من الوجوه مع أي جار من الجيران.

فهل بهذه الكيفية، يمكننا أن نخطط ؟ أفبهذه الطريقة يمكننا أن نتسع ؟

أفبهذه الوسيلة يمكننا أن نعطي للمغرب ذلك الاشعاع الروحي الذي هو اليوم أثمن من الاكتساب الجغرافي والأرضي ؟

لا أعتقد، أن هذه هي الطريقة.

بل أعتقد أن طريقة الاقناع، وطريقة حسن الجوار، وطريقة التفهم، وطريقة الاختيار لما كان ولما صار، للنظر فيما يمكن ويصير هو الذي سيعطي للمغرب مقامه بين الدول ويعطيه ذلك الاشعاع الذي ننشده له.

فنحن نعلم وسائلنا، ونعلم إمكانياتنا.

فإمكانياتنا هي أن نربي ونثقف ونرسل للخارج أحسن ما عندنا من أساتذة ومربين وأطباء ومهندسين وعملة حتى يسمع بالمغرب في كل بقاع الأرض، وبالأخص في هذه القارة الافريقية التي لا تعرف عن المغرب إلا أنه يطالب بكذا، ويأخذ كذا، ويريد كذا.

فصرنا نحن الدولة المطالبة رقم واحد في مجموعتنا الافريقية، ليست المطالبة اللينة بالحجة والاقناع (ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم). لا المطالبة بالسب، لا المطالبة بالعنف، المطالبة بالتاريخ.

وعلى هذا الحساب يجب أن نطالب بالقاهرة لأن الذي خططها عبد من عبيد العبيديين، ونطالب بإشبيلية أو ما فوق إشبيلية بهذا العنف وكأننا نعيش على هامش العالم.

لست على استعداد لسلوك الطريق الهوجاء :

أقول لكم هذا ليعلم الحاضر والغائب وليعلم المغربي وغير المغربي أنني غير مستعد ولست مستعداً نهائياً حالا ولا استقبالا، أن أركب هذه الطريقة الهوجاء، لأنني أنا مسؤول، والمسؤول لا يمكنه أن يرتجل أو يسير في طريق مخالف لسير التاريخ ولسير القانون فيها.

انكبابنا على حل مشاكل شبابنا :

أردت أن أوضح هذه النقطة أكثر من غيرها لأن مشاكلنا الداخلية نعلمها كلها.

نعلم ما يجب علينا في التعليم، وما هو موضوع أمامنا من مشاكل للشبان لما ينتظرونه منا في الاطمئنان على تكوينهم وعلى تشغيلهم وعلى قوتهم، نعلم ما ينتظرنا من نواحي الطرق والمراسي، نعلم ما ينتظرنا في الحقل

الفلاحي أو الحقل السياحي أو الحقل الاداري أو في التعليم القانوني، نعلم هذا كله، إما مفصلا وإما مجملا.

نعلمه إما بالأرقام وإما نعلمه بتقارير، وقد أتيحت لي الفرصة أن أتذاكر معك شعبي العزيز وأخاطبك، لأظهر لك بعض الجوانب التي تجهلها من الميادين، فمشاكلنا الداخلية هي بيدنا، في ملكيتنا يمكننا أن نقاوم مشاكلنا ونعالجها كما نريد، وكيفما نريد وحينما نريد وحسب وسائلنا.

اما اننا نعيش في طور العنترية أو في طور أولئك الفرسان الذين نراهم وهم يقسمون الفرس وراكبه إلى شطرين بسيف من نور أعتقد أن هذا من باب الخرافات التي لا يتعدى سامعها سن السادسة من عمره.

أعتقد شعبي العزيز أن هذه الفرصة المقدسة الثمينة كان لزاماً على أن أنتهزها لأقول لك كلاماً مثل هذا الكلام كلاماً خطيراً، في ظروف دقيقة، في الوقت الذي يطير فيه الانسان إلى القمر.

يجب علينا أن نساير عصر أبولو 11، وألا نستعمل تلك الوطنية الضيقة التي سوف تسير بنا القهقرى لا إلى الأمام.

وسوف تتاح ظروف وتأتي فرص، لأخاطبك في هذا الموضوع بكيفية أدق، وفي زمن أطول.

إنما أردت أن أخاطبك اليوم في هذا الموضوع، لأنني شاعر أنك واع كل الوعي، وإن قلبك مفتوح وأن ذهنك مفتوح وأن كلماتي سوف تنفذ إلى قلبك وذهنك أكثر مما تنفذ إليه في فرصة أخرى.

مدرسة محمد الخامس :

لقد تربينا في مدرسة محمد الخامس طيب الله ثراه، تربينا على أن الكفاح هو معركة دائماً مستمرة.

ولكن المعارك يستوجب الرزانة والرأي والعقل قبل أن يستوجب العمل المرتجل، فلو قام والدي رحمه الله مثلا بما قام به من عناد جهاري غير خاف على الحماية وعلى المستعمرين في سنة 1946 مثلا، ولو أدى ذلك إلى منفاه، فهل كانت إذ ذاك النتيجة هي التي كانت سنة 1953 ؟ لا أظن.

إن كل معركة مناطة بالظروف التي يجب أن تحيط بها، مناطة بالمكان الذي ستكون فيه المعركة، مناطة بالرجال والقوات التي يمكن أن تستعمل للقيام بالمعركة وللفوز بالنصر، لذا هناك معارك تنتظرنا وقبل كل شيء معارك نفسانية.

فمن منا لا يريد، ومن منا لا ينشد أن يرى بلده اليوم كما كان في أيام الموحدين مثلا ؟ من منا لا ينشد أن يكون للمغرب ذلك الاشعاع الروحي والمادي والاداري الذي كان له ؟ ومن منا لا يتمنى لدولته أن تتسع ؟ ومن منا لا يتمنى لدولته أن تنتشر، ولكن شتان بين الأمنية والواقع، شتان بين الامكانيات وما هو محيط بنا من ظروف ودول كبرى ومؤامرات ومغامرات.

لذا شعبي العزيز، فنعلم أن تضحية والدنا المقدس طيب الله ثراه، كانت تضحية مستمرة، مبتغاة مرتضاة، منطقية معقلنة ومتعقلنة.

ويجب علينا إذن أن نتعقل ونفكر ونزن حتى إذا نحن ضحينا أو عملنا في أي حقل من الحقول، في الحقل الخارجي أو الداخلي، كانت تضحيتنا تلك التضحية التي قلت لك عنها آنفا إنها تضحية مبيتة معروفة مرتضاة لا تضحية يوم ولا تضحية فرصة ولا تضحية سنة.



أرجو الله سبحانه وتعالى أن يثيب والدنا المرحوم وأن يمطر عليه شآبيب رحمته، وأن يجعل تضحياته وتضحيته الكبرى في الميزان المقبول، وأن يجعل له القرآن نوراً وأعماله سراجاً في قبره، وأن يقعده مقعد صدق ويريه وجهه، ويعيننا جميعاً على القيام بأعمالنا ويعيننا كذلك على تربية النشىء والجيل المقبل حتى يمكنه أن يحمل الشعلة، ويحتفظ بها حتى يمدها هو الآخر بيده للجيل الذي يتلوه، لأنه كما قلت لكم لا نهاية لهذا البلد ولا نهاية لمخططاته ولا نهاية لمطامحه، ولا نهاية لأمانيه، إلا إذا أراد الله وورث الأرض ومن عليها.

لا أنسى ما ضحى به الشهداء :

وأقول لك شعبي العزيز مرة أخرى إنني بهذه المناسبة لا يمكنني أن أنسى ما قمت به، أيام منفانا، ولا أنسى ما قام به الشهداء من تضحية.

ولا أنسى ذلك الالتفاف بين جميع الطبقات وفي جميع المستويات من نساء ورجال وشبان وأطفال، ذلك الالتفاف حول فكرة واحدة.

لا حل ولا مفاوضات ولا كلام إلا برجوع محمد الخامس

وشكراً لك شعبي العزيز على هذا الوفاء، وعلى هذا الاخلاص، وإننا لنبادلك إخلاصاً بإخلاص ووفاء بوفاء. واعتبرنا كما قلت لك مرة ويوماً من الأيام خادمك الأول الساهر على مصالحك، الذي لا أسرة له إلا أسرته الكبيرة، ولا مطمح له إلا مطمح شعبه، ولا مشكلة له إلا مشكلاتك، ولا مشجع له إلا محبتك وتعلقك.

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

ألقي بالرباط

الأربعاء 6 جمادى الثانية 1389 — 20 غشت 1969